

الفصل الواحد بعد المئة

تجارة مكة

وكان أهل مكة من أبرع التجار ومن أنشطهم في العربية الغربية عند ظهور الإسلام . وقد أشير الى تجارتهم في القرآن الكريم . وسبق أن تحدثت عن تجارتهم في أثناء كلامي على مجمل الحالة السياسية لجزيرة العرب عند ظهور الإسلام .

وقد استفاد أهل مكة ؛ ولا شك ، من الوضع السيء الذي طرأ على اليمن بدخول الحبش اليها ، ومن تردي الأوضاع السياسية فيها والاضطرابات المستمرة التي وقعت بتصادم الوطنيين والغزاة الأحباش . فانجسر كل نفوذ سياسي أو عسكري كان لحكومات اليمن في الحجاز أو على بعض القبائل ، ووجدت قريش نفسها حرة مستقلة وفي وضع يمكنها من استغلال مواهبها في التجارة ، فقامت بمهمة الوسيط ، تنقل تجارة أهل اليمن والعربية الجنوبية الى أسواق فلسطين ، وتنقل تجارة بلاد الشام وحوض البحر المتوسط الى الحجاز ونجد واليمن ، وبذلك حصلت على أرباح طائلة عظيمة ، جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الإسلام ، وصيرت مكة مركزاً خطيراً من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين .

وقد وصف أهل الأخبار أهل مكة بترفهم عن البخل والشح، فقال (الجاحظ) وهو يصفهم : « ومن العجب ان كسبهم لما قلّ من قبل تركهم الغزو ، ومالوا الى الإيلاف والجهاد ، لم يعتريهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل خلقة

في الطباع ، فأعطوا الشعراء كما يعطى الملوك ، وقروا الأضياف ، ووصلوا الأرحام ، وقاموا بنوائب زوار البيت . فكان أحدهم يحبس الحيسة في الأنطاع فيأكل منها القائم والقاعد والداخل والراكب ، واطعموا بدل الحيس الفالودج^١ . فورد الكسب الأول عند العرب في الجاهلية هو الغزو على رأي أهل الأخبار ، وقد ترفعت قريش عنه ، وصرفت نفسها الى التجارة . ومن طبع التجار البخل ومسك اليد ، أما قريش ، فخالفتهم في البخل ، ووصلت الشعراء وقرت الأضياف . ونسب (الجاحظ) سبب تركهم الغزو الى كونهم أهل حمس ديانين ، فقال : « وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزو ، لما فيه من الغضب والغشم واستحلال الأموال والفروج من العرب »^٢ . ويعتقد (الجاحظ) ، بأن للدين أثراً كبيراً على سلوك الانسان وعلى كره الحرب ، إذ تراه يقول : « ثم جاء ما هو أعجب من هذا وأهم ، وذلك أنا قد علمنا ان الروم قبل التدين بالنصرانية كانت تتصرف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالاتاً فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال والقود والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفاً ، ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة وسرت في لحومهم ودمائهم ، فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ، خرجوا من حدود الغالبين الى أن صاروا مغلوبين »^٣ . فالنصرانية قد أثرت على الروم حتى جعلتهم يكرهون الحروب ، وصاروا مغلوبين بعدما كانوا غالبين . ثم جاء بدليل آخر على إثبات رأيه في ان الدين ينقص من شهوة الحرب ، هو ان (التغرغز) من الترك ، نقصت عندهم الشجاعة وذهبت عنهم الشهامة بعد ان دانوا بالزندقة^٤ . فالدين اذن مخفف من شهوة الحرب مبرد من التعطش الى القتال ، لكنه على رأيه أيضاً ، يحول المتدينين الى أسود في المعارك ، فقريش التي تركت الغزوة بته ، كانوا مع طول ترك الغزو ، إذا غزوا ، غزوا كالأسود مع الرأي الأصيل والبصيرة النافذة، والحوارج

-
- ١ كتاب البلدان (ص ٤٦٨) ، (نشر الدكتور صالح أحمد العلي) ، (مستلة من مجلة كلية الآداب سنة ١٩٧٠) .
 - ٢ كتاب البلدان (٤٦٨) ، (وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد في الدين ، فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الاموال واستحسان الغنوب) ، كتاب البلدان (٤٧٢) .
 - ٣ كتاب البلدان (٤٧١) .
 - ٤ كتاب البلدان (٤٧١) .

على اختلافهم من أحرار وعبيد وموالي يقاتلون قتال الباسل المستميت مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم ، و « في هذا دليل على ان الذي سوى بينهم التدين بالقتال » ، وان استبسال قريش والخوارج وغيرهم من المتدينين « انما هو بسبب الديانة »^١ ووحدة العقيدة وعامل الدفاع عنها والجهاد في سبيلها .

وقد نسب (الجاحظ) ميل قريش الى التجارة واشتغالهم بها الى تمسحهم في دينهم وتشددهم في الدين ، فقال : « وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد في الدين فتركوا الغزو كراهة للسبي واستحلال الأموال واستحسان الغنوب ، فلما تركوا الغزو لم تبق مكسبة سوى التجارة فضرَبوا في البلاد الى قيصر بالروم والى النجاشي بالحبشة والى المقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجاراً خلطاء »^٢ .

فتحمس قريش في دينهم ، حملهم على ترك الغزو ، وترك الغزو حملهم على التكب بالتجارة ، فاتجار قريش في مكة وضربهم في الآفاق ، هو بسبب البحث عن رزق يعوضهم عن رزق الغزو ، الذي أبعد الدين عن قلوبهم ، فكان ما كان من أمر تجارتهم . هذا هو رأي الجاحظ في السبب الذي حمل قريشاً على الانصراف الى التجارة .

وفي القرآن : « ربنا اني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »^٣ . فكفة بلد بوادٍ فقر غير ذي زرع ولا ماء ، ليس لأهلها ما لسكان الأرياف والقرى التي تملك المياه والأنهار من ثمرات النبات والأشجار ، فصارت الطائف مصيفاً لهم ، ومورداً يمدهم بثمر النبات والأشجار ، واستغل أهلها فقر واديهم ، وموقع مدينتهم الذي تمر به القوافل ، وشجعوا من كان يسكن حولهم على الحج الى معبدهم وعلى قصده أيام السنة وموسم الحج ، فاستفادوا من الحجاج . وجعلوا الموسم سوقاً يتعاطون فيه البيع والشراء ، فربحوا وصار لهم مال استثماره وشغلوه ، في سوق مكة وفي الأسواق الأخرى ، وتعاملوا مع الأعراب ، وعقدوا الإبلان مع ساداتهم ومع الفرس والروم والحبش ، فصاروا

- ١ كتاب البلدان (٤٧٢) .
- ٢ كتاب البلدان (٤٧٢) .
- ٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الآية ٣٧ ، تفسير الطبري (١٥٢/١٣) .
- ٤ تفسير الطبري (١٥٥/١٣) .

يخرجون الى خارج مكة بأمان بفضل العقود والعهود التي عقدها مع سادات الأعراب ، وهي أهم في نظري من أي عقد آخر عقده مع حكام العراق وبلاد الشام أو اليمن ، إذ كان في استطاعة الأعراب نهب قوافل مكة وسلب أموالها ، وهي ذاهبة أو آيبة محملة ، فلا يستطيع أهل مكة فعل شيء ، ولا تبقى أية فائدة عندئذ لعقود الإيلاف المعقودة مع الحكّام المذكورين . وقد علم سادة مكة ذلك ، فتعاقدوا مع سادات الأعراب ، وأدو لهم نصيباً من الربح ، وبذلك أمنوا جانب أعرابهم ، فكانوا إذا تحرش بهم متحرش ، أدبه سادة قبيلته ، واستعادوا منه ما أخذوه من نهب وسلب .

وقوم هم أهل قرار ، لهم بيت مقدس ، ولهم تجارة ، لا يفكرون في غزو ، ولا يرتاحون من وجود أهل شغب وفتن بينهم . فالغزو سواء أكان منهم أو كان عليهم مضرّ بهم : ولا يعود عليهم بفائدة ، بل هو يبعد القاصدين لهم عنهم ، وفي ابتعادهم عنهم خسارة ، ثم هو يعرقل تجارتهم ويحول دون أنجارهم ، والتجارة مورد رزقهم وعليها معاشهم . وقريش من المستقرين ، ومن التجار ، ولهم معبد ، فكان من صالحهم اشاعة الأمن والابتعاد عن التشاحن وفض كل خلاف يقع فيما بينهم ، أو فيما بينهم وبين غيرهم بالتي هي أحسن ، وجردّ الناس اليهم ، والعمل على اكتساب صداقة أهل الحضر وأهل الوبر أيضاً ، وعلى إنصاف الغريب الذي قد لا يجد له مجيراً من بين أهل مكة فيظلم ، وعلى تقديم الرفادة للحجاج الضعفاء ، وإسقايتهم الزبيب المنبوذ بالماء في أيام الحج ، وعلى شراء الألسنة ، ألسنة الشعراء خاصة ، لما كان لها من أثر في النفوس .

وللمنافع المادية التي كانوا يحصلون عليها من تآلفهم مع القبائل ، حرصوا على ألا يؤذي أحد منهم أحداً من الغرباء ، فيشير قوم الغريب عليهم ، لا سيما إذا كان ذلك الغريب من قبيلة تمر تجارة قریش بها . فلما عذب أهل (مكة) (أباذر الغفاري) ، أقبل (العباس) عليهم ، وقال : « ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه من طريق تجارتكم الى الشام ؟ . فأنقذه منهم »^١ . فزهّد قریش وعدم ميلهم الى الاعتداء على الغرباء ، لم يكن كما رأى (الجاحظ) عن (تمس) وعن دين ، وإنما كان عن طمع في المال وفي الكسب وفي الحصول على كسب

١ الاصابة (٦٤/٤) ، (رقم ٣٨٢) .

من تجارة تمر بطرق يجب أن تكون آمنة بالنسبة لها أمينة ، ولا يكون ذلك الأمان ممكناً، إلا بتأليف قلوب سادات القبائل ، والحرص على منع أهل مكة من الاعتداء على الغرباء .

بل نجد أهل مكة يجيرون كل غريب حتى إن كان صعلوكاً أو خليعاً أو مستهتراً بالعرف والأخلاق ، أو قاتلاً غادراً ، أملاً في الاستفادة منهم ، وفي عدم التحرش برجالهم إن خرجوا متاجرين يحملون أموالهم لبيعها في الأسواق البعيدة ، ولاستخدامهم في حمايتهم ممن قد يتحرش بهم من الأعداء والأعراب، ونجد في كتب أهل الأخبار أسماء عدد من أمثال هؤلاء ، كانوا قد لجأوا الى مكة وأقاموا بها واستقروا وعاشوا بها مجاورين لساتنها ، آمنين على حياتهم لأنهم في جوار سيد من قریش .

وفي القرآن الكريم آيات تدل على وجود مستوى راق في مكة ، وفي أماكن أخرى للتجارة والاقتصاد ، وتدلل على تنسيق وعمل منظم بين التجار . وقد وردت فيه إشارات الى (رؤوس الأموال) ، وهي الأموال الخالصة التي تشغل في التجارة والتي تعطي أيضاً المحتاجين اليها لتربو ولتعطي صاحبها الربا ، كما وردت فيه إشارات الى البيع والشراء والقروض والرهون والشركات والتكاتب والتعامل التجاري وأمثال ذلك . وكل ذلك قد نظم وهذب وفقاً لقواعد الاسلام وصار أساساً لنظم التجارة والمال في الاسلام . ولهذا تستدعي دراسة النظم الاقتصادية والتجارة في الاسلام الرجوع الى السناد ، وسنادها هو نظمها وقواعدها قبل الاسلام .

ويظهر من كتب التفسير والسير ان أهل مكة كانوا يسهمون في رؤوس أموال قوافلهم التي يبعثون بها الى بلاد الشام واليمن ، وفي الأعمال التجارية الأخرى . يسهم أفراد أسرة تجارية واحدة أو جملة أسر ، بل معظم أفراد مكة الأحرار في تلك القوافل ، كل بحسب نصيبه لينعموا بالأرباح . وقد ساعدت هذه الشركة على إعانة أصحاب السهام وعلى مساعدة أهل مكة في رفع مستواهم المعاشي . وإذا كنا لا نملك موارد نتحدث عن أنظمة تلك الشركة أو الشركات وقوانينها، وعن كيفية توزيع الأرباح بين المساهمين ، وعن أنواع تلك الشركات وأصول حساباتها ووكلاتها في الخارج ، فن الميسور ان نظفر بقدر كبير من جذورها وأصولها في

فصول الشركات والقضايا المتعلقة بتنظيم التجارة في الاسلام في كتب التفسير والحديث والفقهاء خاصة ، ففي هذه الفصول إشارات كثيرة إلى شؤون التجارة والاقتصاد عند الجاهليين .

ويظهر مما ذكره أهل الأخبار وأوردوه عن قوافل مكة ، أن مال القافلة ، لم يكن مال رجل واحد ، أو أسرة معينة . بل كان يخص تجاراً من أسر مختلفة ، وأفراداً وجد عندهم المال ، أو اقترضوه من غيرهم فرموه في رأس مال القافلة أملاً في ربح كبير. فقد ذكروا أن قافلة قريش التي كانت في خفارة (أبي سفيان) والتي أثارَت معركة (بدر) ، كان رأس مالها مختلطاً ، ساهم فيه كل متمكن من أهل مكة . حتى « لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به في العير »^١ .

ويظهر من سورة (قريش) أن قريشاً كانت ترحل رحلتين في السنة : رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى بلاد الشام . وهما رحلتان تجاريتان ، تشتري فيها وتبيع ، وتربح منها ربحاً صبرها في وضع مالي حسن . وقد صارت مكة لذلك العهد مركزاً مالياً خطيراً في الحجاز ، وسوقاً لتبادل السلع . ولم تكن قريش تستورد التجارة لتخزينها في مكة ، أو لتصرفها في أسواق مكة وحدها . فمكة وحدها بلدة صغيرة لا تستوعب أسواقها هذه التجارة ، بل كانت تستوردها من الشمال والجنوب ، لتصرف ما يمكن بيعه في أسواق مكة وهو القليل ، ولتصدر وهو الغالب ما استوردته من الجنوب إلى الشمال أعني بلاد الشام ، ولتصدر ما استوردته من بلاد الشام ، إلى اليمن ومنها إلى بقية العربية الجنوبية والسواحل الأفريقية المقابلة ، فتربح من هذه الصفقات ربحاً حسناً .

وتروي كتب أهل الأخبار أن قريشاً كانوا لا يخرجون عيراً فيرحلون إلا من (دار الندوة)^٢ . فكأنها كانت منطلق التجار والتجارة . ولعلمهم كانوا يفعلون ذلك لكونها ندوة مكة ودار الرأي والحكم في هذه المدينة ومجلس أهل المال فيها . وكذلك كان يفعل أهل المدن المتاجرة ، تتحرك قوافلهم من ساحة مجالسها ليشاهدوا الناس ، وإذا عادت أناخت في هذه الساحات أيضاً ، ليراها أهل البلد ، فتكون

١ امتاع الاسماع (١/٦٦) .

٢ ابن سعد ، طبقات (١/٧٠) ، (ذكر قصي بن كلاب) .

لهم فرحة تشبه أفراح العيد .

والرحلتان المذكورتان ، هما من قوافل قريش الكبيرة التي كانت القافلة الواحدة منها تتألف من أكثر من ألف بعير ، والتي يساهم فيها كل من شاء ممن له مال من أهل مكة ، ويريد الاتجار به ، تشترك فيها الأسر المعروفة بالغنى والتجارة من قريش ويساهم معها من له مال في ذلك الوقت ، رجاء الربح والكسب . وقد كانت قافلة (أبو سفيان) التي أهاجت وقعة بدر من قبائل قريش كلها ، وأحصها (بطون كعب بن لؤي) . ليس فيها من (بني عامر) ، إلا ما كان من (بني مالك بن حِسل) ، ولذلك عرفت نفرة قريش الى (بدر) بـ (نفرة بني كعب بن لؤي)^١ .

وكانت قافلة (أبو سفيان) المذكورة ، قد تاجرت ببلاد الشام وهمت بالعودة إلى مكة ، فلما سمع رسول الله بأبي سفيان مقبلاً من الشام ، بألف بعير ، محملة بأموال عظيمة ، ندب المسلمين اليه ، وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فأخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها ، فانتدب الناس ، وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار ، فبلغه خبر استنفار الرسول أصحابه ، فأرسل (ضمضم بن عمرو) الغفاري إلى مكة ، وأمره ان يأتي قريشاً فيستنفرهم الى أموالهم ويخبرهم ان محمداً قد عرض لها في أصحابه . فخرج اليها ، فلما بلغها ، وقف على بعيره يبطن الوادي ، وقد جدع بعيره وحول رحله ، وشق قيصه ، ثم صرخ : يا معشر قريش ، اللطيمة ، اللطيمة ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى ان تدركوها ، الغوث ، الغوث . فتجهز الناس سراعاً ، وساروا حتى بلغوا (بدرأ) ، وكان (أبو سفيان) ، قد غير طريقه حين سمع خبر خروج رسول الله بأصحابه ، فساحل بقافلته وترك بدرأ يساراً ، وانطلق حتى أسرع فبلغ مكة ، وكانت قريش قد نزلت (الجحفة) ، فكتب اليها : انكم انما خرجتم ل تمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجأها الله فارجعوا . وأصر بعض رؤساء قريش على ورود (بدر) ، وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام . وفيه ماء ، وعلى الإقامة ثلاثاً ، ينحرون الجزور ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف عليهم القيان حتى تسمع بهم العرب

١ الطبري (٤٢٢/٢) .

وبمسيرهم وبجمعهم ، فلا يزالون يهابونهم أبداً بعدها . ومضوا الى بدر ، ف وقعت معركة بدر^١ .

وما كان لإصرار رؤساء قريش على المسير الى المسلمين لملاقاتهم في الطريق ، اسلوباً من أسلوب التجار في الحفاظ على السمعة وفي الظهور بمظهر القوي المتمكن حتى لا يطمع بهم الطامعون ويتجاسرون عليهم . فكان خروجهم هذا نوعاً من التحدي ومظهراً من مظاهر اظهار القوة ، لتخويف الغير ، لعلمهم بقوتهم ، فكأنهم أرادوا انزال ضربة بمن خرج مع الرسول لملاقاة القافلة ، معتمدين على عددهم وقوتهم ، حتى يتهيب المسلمون في المستقبل من التحرش بقوافلهم، وليكون ذلك درساً لهم . ولعلمهم كانوا لا يريدون في الواقع الاشتباك مع المسلمين في قتال، وإنما كانوا أرادوا مجرد تخويفهم واظهار أنفسهم مظهر القوي العزيز المهاب، كما يظهر ذلك من قول أهل الأخبار من أنهم كانوا أرادوا الاقامة ببدر ثلاثة ايام ، ينحرون الجزور ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمر ، وتعزف عليهم القيان حتى تسمع بهم العرب وبمسيرهم وبجمعهم ، فلا يزالون يهابونهم أبداً بعدها. ولكن أبت الأقدار إلا ان يقع الاصطدام فوق على نحو ما هو مذكور .

وكانت (بصرى) سوق قريش في رحلتهم الى بلاد الشام ، عندما تقف قوافلهم وتحط رواحلهم ، فيشترون ويبيعون ويمكثون حتى ينتهوا من تجارتهم ثم يعودون الى مكة . وكان منهم من يصل الى (غزة) ويتاجر في أسواقها، حيث تبيع أسواقها منتجات حوض البحر المتوسط وما يرد اليها من (أوروبا) من تجارة . وبيع التجار العرب فيها ما يحملونه من بلاد العرب من سلع مستطرفة مطلوبة في أسواق البحر المتوسط . وبها مات (هاشم بن عبد مناف) جد النبي ، حين كان توجهه للتجارة ، فأدرسته منيته فمات بغزة وبها قبره ، فقيل غزة هاشم^٢ .

١ ابن هشام (٦١/٢ وما بعدها) ، (حاشية على الروض) ، الروض الانف (٦١/٢) وما بعدها) ، الطبري (٤٢١/٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٩٨/٣) ، القاموس (١٧٦/٤) ، تفسير ابن كثير (٥٥٣/٤ وما بعدها) ، تفسير الطبري (١٩٧/٣٠) وما بعدها) .

٢ وقد رثاه « مطرود بن كعب » الخزاعي بقوله :
وهاشم في ضريح عند بلقعة تسفى الرياح عليه وسط غزات
وقيل « بين غزات » ، وورد :

ميت بردمان ، وميت بسلمان ، وميت عند غزات
تاج العروس (٦٥/٤) .

والأدم ، هي في رأس قائمة السلع التي كان يحملها أهل مكة الى بلاد الشام، كانوا يجمعونه من اليمن ومن الطائف ويحملونه الى بلاد الشام والعراق . ومنه ما كان معمولاً مصقولاً معتنى به ، زخرف بالذهب ، لذلك عرف بـ (المذاهب). و (المذاهب) الجلود المذهبة^١ . وهي من أرقى الجلود وأغلاها، يشتريها الأغنياء لاستعمالها في الأشياء الغالية الثمينة .

وتعدّ اليمن من أهم الأماكن المصدرة لجلود البقر في جزيرة العرب ، وقد كانت تحمل الى مكة والى مواضع أخرى لبيعها في أسواقها منها البصرة في الإسلام، حيث كان التجار يحملون جلود البقر من اليمن اليها^٢ . واشتهرت أيضاً بعطورها لجودتها . روي أن (عبدالله بن أبي ربيعة) كان يبعث بعطر اليمن من اليمن الى أمه (أسماء بنت مخزبة) ، أم (أبي جهل) ، فكانت تبعه الى الأعطية، وكانت تضع العطور في قوارير ، وترزنها ، فتبيع نقداً ، أو ديناً . فلإذا باعت ديناً كتبت مقدار الدين في كتاب^٣ . ولعل شهرة مكة بعطورها ، إنما جاءت بها من العطور المستوردة التي تأتي اليها من اليمن ومن أماكن أخرى .

وكان الزيت على رأس السلع التي كان يشتريها أهل مكة وتجار يثرب من بلاد الشام ، لصفائه ولنقاوته وجودته ، وكان (دحية بن خليفة الكلبي) يتجر مع بلاد الشام بالزيت والطعام ، وصادف رجوعه من الشام وقت صلاة الجمعة ، والرسول يخطب ، فلما سمع المصلون خلف الرسول صوت أجراس القافلة جعلوا يتسللون اليها ، خشية ان يسبقوا اليها ، فتباع ، حتى بقيت منهم عصابة اثني عشر رجلاً وامرأة . فوبخهم الله بالآية : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين »^٤.

١ تاج العروس (٢٥٨/١) ، (ذهب) .

٢ قال الشاعر :

والله للنوم بجرعاء الحفر
أهون من عكس الجلود بالسحر

بلا العرب (ص ٣٠٨) .

٣ ابن سعد ، طبقات (٢٢٠/٨) ، الواقدي ، مغازي (٦٥) .

٤ الجمعة ، الآية ٩ ، تفسير الطبري (٦٦/٢٨ وما بعدها) ، تفسير ابن كثير (٤ /

٣٦٦ وما بعدها) ، الواحدي أسباب النزول (٣٢٠) ، مسند الامام أبي حنيفة (٧٣

وما بعدها) .

وقد عرف الزيت المستورد من الشام بالزيت الركابي ، لأنه كان يحمل على الإبل من الشام .

ولم يشر أهل الأخبار إلى رحلة على شاكلة رحلتي الشتاء والصيف إلى العراق . وإنما أشاروا إلى تجار منهم كانوا يتاجرون مع الحيرة . ومعنى هذا ذهاب قوافل صغيرة إلى العراق ، لم تكن بحجم قوافل قريش إلى بلاد الشام أو اليمن . ولم يشر القرآن الكريم أيضاً إلى رحلة جماعية إلى العراق أو إلى موضع آخر . مما يدل على أن قريشاً كانت ترحل رحلتين جماعيتين كبيرتين في السنة إلى بلاد الشام في الصيف ، وإلى اليمن في الشتاء فقط . أما رحلاتهم الأخرى ، فلم تكن كبيرة ضخمة وجماعية ، بل كانت قوافل دون القافلتين في الحجم ، وكانت خاصة أصحابها أغنياء ، لهم رؤوس أموالهم ، يبعثون بقوافلهم على حسابهم ، في كل وقت شاؤوا ، وتكون أرباحها لهم : لا يشاركون فيها مشارك ، وقد يرأسون بأنفسهم قوافلهم ، فيذهبون بها إلى العراق ، ولهم فيه تجار وأصحاب ، فإذا باعوا عادوا ببضاعة جديدة وبما كسبوه إلى مكة .

فقد روى أن (أبا سفيان) كان يذهب بنفسه إلى العراق للتجارة ، يحمل معه حاصلات اليمن والحجاز ، ويعود بحاصلات العراق وبما يحتاج إليه أهل الحجاز واليمن من بضاعة . بل ذكروا أنه كان يفد على (كسرى) ، يحمل إليه الهدايا تقرباً إليه . ذهب إليه مرة ، ومعه خيل وأدم ، فقبل (كسرى بن هرمز) الخيل وردّ الأدم وأعطاه هدايا وأطافاً^١ . وكان من مصلحة كسرى التقرب إلى أهل مكة ، فقد كانوا تجاراً ، وكانوا على طريق مهم وفي مركز خطير من الناحية السياسية والتجارية ، كما كان نفسه يتاجر مع العرب ويتبايع معهم ، لذلك كان من مصلحته بمجاملة أهل مكة والاتصال بهم .

وذكر أنه قد كانت له صلات برؤساء وتجار الحيرة ، وبملوكها أيضاً ، يحمل إليهم الهدايا ، ويأخذ منهم أطافهم ، ثم يعود بما يجده في أسواق الحيرة من تجارات . قدم مرة على عمرو بن هند ، أو النعمان بن المنذر ، فوجد عنده (مسافر بن عمرو بن أمية القرشي) ، وكان قد ترك مكة ونزل الحيرة ، وهو

١ تاج العروس (١/٢٧٧) ، (ركب) ، كتاب البلدان (٤٨٨) .
٢ الاغانى (١٢/٤٦) ، العقد الفريد (٢/٢١) ، « اللجنة » .

في قبة من آدم حمراء ، أمر الملك بضرها له ، لإكراماً له ، وكان الملك اذا فعل ذلك برجل ، عرف قدره ومكانته ، فالتقى بـ (مسافر)^١ .

وكان أبو سفیان - كما يقول أهل الأخبار - تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش الى الشام وغيرها من أرض العجم ، وكان يخرج أحياناً بنفسه ، وكانت اليه راية الرؤساء المعروفة بالعقاب ، وكان لا يجسها إلا رئيس ، فإذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعت تلك الراية بيد الرئيس . وكان صديقاً للعباس وندمه في الجاهلية^٢ .

وكان (مسافر بن أبي عمرو بن أمية) ، وهو من رجال قريش جلالاً وجوداً وشعراً ، ومن فتيانها ، ممن يتاجرون مع العراق ، ويربح من تجارته هذه ربحاً طيباً ، وكان هلاكه بالعراق . فقد كان قد خرج في تجارة الى الحيرة ، فهلك بها عند (النعمان بن المنذر) ، ورثاه (أبو طالب)^٣ .

وكان (عبدالله بن جدعان) من أثرياء مكة ومن تجارها . ذكر أنه تاجر مع الحيرة . ويظهر مما ذكره أهل الأخبار عنه ، أنه كان ثرياً جداً ، وربما عدّ أثرى قريش في أيامه ، واليه تنسب قصة ادخال (الفالوذج) الى أهل مكة ، حيث يذكرون أنه تعلمها من أهل العراق ، وجاء معه طبّاخ خاص ليطبخ له طبخ الحيرة وأهل فارس .

وكان (العاص بن وائل بن هاشم) السهمي من تجار مكة ، الذين رحلوا بتجارهم إلى خارج مكة . وكان من أشرف قريش . وقد مات بالأبواء^٤ . ولعله كان خارجاً في تجارة له فمات هناك . ومن ولده (عمرو بن العاص) . وقد أسلم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة معاً^٥ . وكان تاجراً كذلك . ويذكر (ابن كثير) ان (عمرو بن العاص) وفد على (مسيلمة) ، وذلك بعد ما بعث رسول الله وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ فقال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغسة ، فقال :

١ الاغاني (٤٦/٨ وما بعدها) .

٢ الاستيعاب (٨٦/٤) ، (حاشية على الاصابة) .

٣ كتاب نسب قريش (١٣٥ وما بعدها) ، الاشتقاق (١٠٣) .

٤ كتاب نسب قريش (٤٠٨) .

٥ كتاب نسب قريش (٤٠٩) .

وما هي ؟ فقال : « والعصر إن الانسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » . ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال : وقد أنزل علي مثلها ، فقال له عمرو : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر ، وانما أنت أذنان وصدر وساترك حفر نقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو ، والله انك لتعلم أنني أعلم انك تكذب^١ . والرواية موضوعة ، فسورة (العصر) من السور المكية ورقمها (٢٧) حسب ترتيب نزول السور بمكة على رأي العلماء ، أي قبل الهجرة ، وقبل إسلام (عمرو) بزمن ، وقبل مجيء (مسيلمة) إلى المدينة مع وفد حليفة ، وبعد مجيئه إليها بدأت دعوته بمعارضة الرسول . ثم ان جملة : « ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة ؟ » ، جملة تشعر ان (عمرو بن العاص) كان مسلماً إذ ذلك ، بينما كان هو من المشركين في ذلك العهد . ثم إن ما نسب الى (مسيلمة) من آيات ، وضع على وزن آيات القرآن ومحاكاة لها ، وليس في : (يا وبر يا وبر الخ) أي شيء يضاهي : (والعصر) في النسق أو في المعنى ، وعندني أن الخبر من الأخبار الموضوعة . وقد يكون (عمرو بن العاص) قد زار اليمامة ، فهذا شيء غير مستبعد . فقد كان تاجراً وكان تجار مكة يسافرون الى اليمامة والى غيرها للتجارة ، أما أنه ذهب خاصة لزيارة (مسيلمة) ومكالمته على نحو ما يرد في الخبر ، فأسلوب يدل على وجود الصنعة فيه أكثر مما يدل على الصحة وصدق الرواية .

وقد عرف أهل الحيرة بنشاطهم في الأسواق وبتجارهم مع أسواق جزيرة العرب وغيرها ، حتى قيل : « إنك لا ترى بلداً في الأرض ليس فيه حيري^٢ » . وقد كانت الحيرة نفسها سوقاً مقصودة ، تشتري وتبيع ، يأتيها التجار من مختلف الأمكنة ، وموضع تجاري على هذه الشاكلة لا بد أن يذهب أهله الى الأسواق الأخرى للبيع والشراء. وقد عرف أهل الحيرة بحذقهم في الصيرفة وفي بيع الفلوس . قيل لأحد أهل الحيرة ممن يتعاطى الطب : « ما لأهل الحيرة والطب . عليك بيع الفلوس في الطريق^٣ » .

- ١ تفسير ابن كثير (٤/٥٤٧) ، البداية والنهاية (٦/٣٢٦) .
- ٢ مختصر كتاب البلدان (ص ٥١) .
- ٣ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول (ص ٢٥٠) .

وكان تجار الحيرة يزورون مكة للتجارة بها ، ولهم مع تجارها عقود وجوار وتجارة ، فإذا ذهب أحدهم الى مكة نزل على حليفه وجاره ، ثم باع ما عنده من تجارة ، واشترى ما يجده بمكة من سلع مطلوبة مرغوبة ثم يعود الى الحيرة . وكان منهم من كوّن مع حلفائه من أهل مكة تجارة مشتركة تتعامل بالحيرة وبمكة وبمواضع أخرى ، وتسوي أشغالها بالمراسلة ، يدير الحيريون منهم أعمال الشركة بالحيرة ، ويدير المكيون منهم أعمالها بمكة ، ثم يراجعون في الحساب ، ويقتسمون الأرباح والخسائر على وفق ما اتفقوا عليه .

وقد كانت تجارة قريش تجارة واسعة ، وقد أقام تجارهم وكالات ومتاجر في مواضع متعددة ، لتتولى أمر البيع والشراء . ولعلمهم كانوا يمثلون مصالح مكة السياسية في الحبشة كذلك ، كأن يتولى هؤلاء التفاوض مع الحكومة هناك في عقد عهود سياسية واقتصادية وما شابه ذلك . وقد كان اتصال أهل مكة بالحبشة وثيقاً ودائماً ، ويظهر أنهم كسبوا منافع مهمة من أعمالهم واشتغالهم في تلك البلاد .

وقد عهدت قريش الى أناس آخرين من رجالها بقيادة قوافلها ، الى بلاد الشام أو الى اليمن . كما قام رجال منها بتجهيز قوافل لهم لتتاجر بأموالهم . ولما هاجر الرسول الى (يثرب) استأؤوا من خبر هجرته استياءً كبيراً ، لعلمهم بأهمية موقع (يثرب) ، وبما سيقوم به المسلمون من التعرض بقوافلهم ومن تحرشهم بتجارهم وفي هذا العمل نكبة عظيمة تصيب تجارتهم وأرباحهم ومنافعهم المادية . فتشاوروا في أمرهم وتناقشوا ، وقالوا : « قد عوّر علينا محمد متجرنا وهو طريقنا » وقال (أبو سفيان) و (صفوان بن أمية) : « إن أفئنا بمكة أكلنا رؤوس أموالنا »^٢ ، وقال أيضاً : « كنا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا »^٣ ، وقال غيره مثل ذلك من كلام ، يشعر بمقدار الأضرار والخسائر التي منيت بها تجارة قريش بسبب هجرة الرسول الى يثرب واعتراضه طرق القوافل . لا سيما بعد أن تبين لها أن جميع السبل التي فكرت في سلوكها لتسيير قوافلها عليها ، هي غير آمنة ولا سالمة ، وأن المسلمين

١ الاغانى (٥٠/٨) .

٢ الطبري (٤٩٢/٢) وما بعدها .

٣ الطبري (٦٤٦/٢) .

قد أخذوا يباغتون قوافلهم حتى في الطرق الجنوبية المؤدية الى اليمن والطرق البعيدة الى تؤدي الى العراق .

وقد وقف المسلمون لقريش بالمرصاد ، وأخذوا باعتراض قوافلهم ، فما كادت تمضي سبعة أشهر من مقدم الرسول المدينة ، حتى أمر (حمزة) بالتوجه الى ساحل البحر من ناحية العيص ، للتحرش بعير لقريش كانت قد جاءت من الشام تريد مكة ، فيها أبو جهل في ثلاثمائة راكب ، فكان خبر هذه السرية أول خبر سيء يبلغ مسامع قريش ، وقد نجت القافلة ، إلا أن الخبر جعل قريشاً تشعر أنه سيكون مقدمة لأخبار سيئة ستصيب مصالحها التجارية وحياتها الاقتصادية ، ولن يكون لها من نجاة ، إلا بالتهيؤ للقضاء على الرسول والإسلام . كما فكرت في وضع خطط لتغيير طرقها التي تسلكها في ذهابها الى الشام باتباع طرق بعيدة سالمة ، تكون بعيدة عن المسلمين ، وقد سلكتها فيما بعد ، حين ضيق المسلمون على قوافلها التي كانت تسير على الطرق المألوفة ، فتين أنها لم تكن سالمة أيضاً وأن المسلمين أخذوا يهاجمونها على كل طريق ، مهما كان .

وكان من غيظهم على الرسول ، ومن تأثرهم بما أصاب تجارتهم من خسارة وضرر ، ان لقبوا الرسول بـ (القاطع) . ولما ذهب (الحجاج بن علاط) ، الى مكة ، وكان تاجراً له مال بمكة أودعه زوجته ، ومالاً متفرقاً في تجار أهل مكة ، وكان مسلماً يكتم إسلامه ، قالوا له : أخبرنا بأمر محمد ، فإنه قد بلغنا ان القاطع قد سار الى خيبر ، وهي بلدة يهود وريف الحجاز . فنعتوا الرسول بـ (القاطع) لأنه قطع عليهم تجارتهم وهدد طرقهم التي يسلكونها للوصول الى أسواق الشام وبلاد العراق .

ولما كان الشهر الثامن من مقدم الرسول المدينة ، أرسل سرية الى بطن (رابغ) بلغت (ثنية المرة) ، وهي بناحية الجحفة ، لتقابل عمراً لقريش ، اختلف في أميرها ، فقيل : كان (أبو سفيان) ، وقيل بل (مكرز بن حفص) ، وقيل (عكرمة بن أبي جهل) . فكان بين المسلمين والمشركين رمي ، ونجت القافلة .

١ الطبري (٤٠٢/٢) ، امتاع الاسماع (٥١/١) .

٢ الطبري (١٨/٣) .

وكانت كبيرة على ما يظهر ، إذ كان عدد رجالها ، أي حراسها مائتين^١ . ورجع المسلمون دون ان يغنموا شيئاً ، وقد كانت السرية انذاراً آخر لقريش بالخطر الذي سيحقيق بتجارته وبمصالحها المادية وبأن ما كانت تربحه من أرباح لن يدوم لها فيما بعد .

وقد تمكن (أبو بصير) من إنزال ضربات موجعة بتجارة قريش ، اختار (العيص) ، وهو ناحية على ساحل البحر على طريق غير قريش الى الشام موضعاً ينقض منه على قوافل قريش ، فيسلب ما فيها من مال ويقتل من يقتل من المارة ، حتى ضيق عليها ، وهرب اليه من كان بمكة محبوباً من المسلمين ، حتى تجمع عنده قريب من سبعين مسلماً ، أغار بهم مرة على ركب كان يريد الشام ، معهم ثمانون بعيراً ، فأخذوا ذلك وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين ديناراً . فغاض قريش تضيق (أبو بصير) عليهم ، حتى كتبوا الى رسول الله يسأله بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير اليه ومن معه . فكتب اليه ان يعود ومن معه^٢ .

ولما عقد صلح (الحديبية) وكانت الهدنة بين قريش والرسول ، استراحت (قريش) ، وإن بقيت خائفة من أن لا تجد أمناً لها ، فأرسلت قافلة في نفر من قريش فيها (أبو سفيان) ، الى (غزة) متجرها في بلاد الشام ، فوصلت سالمة الى هناك ، وتاجرت ثم عادت^٣ .

وذكرت كتب التاريخ والأخبار أسماء عدد من رجال مكة كانوا يخرجون الى التجارة بأموالهم وأموال غيرهم من أمثال أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله ، وكان يخرج تاجراً الى الشام . وكان رجلاً مأموناً ، يخرج بماله وأموال رجال من قريش أبضعوها معه^٤ . وقد عرف (بالأمين) ، وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة ، يخرج بماله وبمال غيره تاجراً ، يأتمنون به ، ثم يعود فيؤدي الى كل ذي مال من قريش ماله الذي كان أبضع معه . وكان آخر خروجه تاجراً بأمواله وبأموال قريش قبل الفتح ، خرج الى الشام فلما انصرف قافلًا لقيته سرية لرسول الله ، أميرهم (زيد بن حارثة) ، وكان أبو العاص

١ الطبري (٤٠٢/٢) ، امتاع الاسماع (٥٢/١) .

٢ امتاع الاسماع (٣٠٥/١) .

٣ الطبري (٦٤٦/٢) ، (ذكر خروج رسل رسول الله الى الملوك) .

٤ الطبري (٢٩٢/٢) .

في جماعة عبر ، وكان زيد في نحو سبعين ومائة راكب ، فأخذوا ما في تلك
العبر من الأثقال وأسروا منهم ناساً ، فاستجار (أبو العاص) بزینب ، فأجارته ،
ورد الرسول الأموال والأسرى اليه ، وعاد مع القافلة الى مكة ، فأدى الى كل
ذي مال من قريش ماله الذي كان أضع معه ، ثم أعلن أمام قريش شهادة
الاسلام ، وتركهم فقدم يثرب مسلماً ، ورد رسول الله ابنته عليه^١ .

ومن تجار قريش (صفوان بن أمية بن خلف) ، ذكر انه كان أحد العشرة
الذين اليهم شرف الجاهلية ووصله لهم الاسلام من عشرة بطون . وكان أحد المطعمين
في الجاهلية والفصحاء ، وأحد أشراف قريش ، واليه كانت الأيسار ، وهي الأزام ،
فكان لا يسبق بأمر حتى يكون هو الذي يجري يسره على يديه . وكان يقال له :
(سداد البطحاء) . وهو أحد المؤلفة قلوبهم . وكان غنياً ، وكذلك كان أولاده^٢ .
ورد في الحديث : ان صفوان بن أمية قنطر في الجاهلية ، وقنطر أبوه ، أي صار
لها مال كبير ، كأنه يوزن بالقنطار^٣ ، فيها من أسرة ثرية ثقيلة الثراء .

وتعدت أيام مغادرة القوافل وأيام عودتها سالمة ، من الأيام المشهودة في مكة ،
يخرج فيها أهل البلدة لتوديع القافلة متمنين لها النجاح والفلاح والعودة سالمة بربح
وافر كثير ، داعين آهنتهم ان تبارك في رجالها وتمنحهم العون والفلاح في البيع
وفي وقايتها من شر السفر ومن أذى الأشرار قطاع الطريق . ويخرج فيها أهل
مكة فرحين مستبشرين ، لاستقبال القافلة قادمة من سفرتها البعيدة وهي محملة بسلع
جديدة وبثمن ما باعته من سلع وما ربحته من فروق الأسعار : سعر الشراء وسعر
البيع ، حتى اذا ما بلغت القافلة مكة ، كان أول واجبها زيارة رئيسها وأصحابها
(البيت الحرام) لرفع الحمد والشكر الى رب البيت على ما أنعمه عليها من الأمن
والسلامة وما رزقها من ربح . ثم يعود مع أصحابه الى بيوتهم ليستريحوا وليقوموا
بتصفية حسابهم ، واعطاء كل واحد من المساهمين في رأس مال القافلة نصيبه من
الربح .

وقد ذكر أن قريشاً كانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً . وأن قافلة

١ الاصابة (٤/١٢١) ، (رقم ٦٩٢) ، الاستيعاب (٤/١٢٥) ، (حاشية على الاصابة)
٢ الاصابة (٢/١٨١) وما بعدها ، الاستيعاب (٢/١٧٩) وما بعدها ، (حاشية على
الاصابة) .
٣ تاج العروس (٣/٥٠٩) ، (قنطر) .

(أبي سفيان) التي كانت سبب وقعة بدر، كانت ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، فسلم أبو سفيان إلى أهل العير رؤوس أموالهم، وأخرجوا أرباحهم، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً^١.

وقد اشتهرت بعض الأسر من قريش بالتجارة مع الأقطار البعيدة عن مكة. وقد ذكر أهل الأخبار أن بني (عبد مناف) المعروفين بـ (أصحاب الإيلاف) كانوا أسرة ثرية غنيّة اختصت بالتجارة مع الخارج. وكانوا أربعة أخوة، هم: هاشم، وكان يؤالف الروم، فأمن في تجارته إلى الشام. أما الأخ الثاني، فعبد شمس، وكانت تجارته مع الحبشة. وأما الثالث فكان المطلب، وكان يرحل إلى اليمن. وأما الرابع، فهو نوفل، وكان يرحل إلى فارس. وقد عرف هؤلاء بـ (المتجرين)^٢ وبـ (المجبرين) وبـ (المجبرين)^٣.

ولم يكن الإيلاف إيلافاً مع الروم أو الفرس أو الحبشة، وإنما كان إيلافاً مع سادات القبائل. فبفضل العقود والعهود التي عقدها (هاشم) وأخوته مع سادات العرب أمكن مرور قوافل مكة بأمن وسلام نحو العراق وبلاد الشام واليمن والحبشة. ولولا هذه العقود التي جبرت قلوب سادات القبائل بتقديم حقوق مرور لهم، أو بإشراكهم في مال القافلة، بحمل تجار مكة ما عندهم من سلع لبيعها على حسابهم، وتقديم ثمنها مع الربح الذي جاؤوا به على سعر البيع المقدر، لما كان في إمكان قريش ضبط أولئك الأعراب ومنعهم من التحرش بقوافلهم ومرورها إلى الأسواق بأمن وسلام.

ويرجع أهل الأخبار مبدأ (الإيلاف) وخروج قريش من مكة بالقوافل إلى بلاد الله الأخرى إلى (هاشم بن عبد مناف)، فهم يذكرون أن قريشاً كانوا تجاراً « وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب، فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام فنزل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويجمع من حوله فيأكلون، وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم،

١ نهاية الارب (١٧/٨١)، (ذكر غزوة أحد) .

٢ بلوغ الارب (٣/٢٨٥) .

٣ تاج العروس (٦/٤٤)، (الف) .

فذكر ذلك لقيصر فقيل له : ها هنا رجل من قريش بهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم ، وانما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتمم بالخبز ، فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، فكان يبعث اليه في كل يوم فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك ، إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت ان تكتب لي كتاباً تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو أرخص عليكم ! فكتب له كتاباً أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بحجّ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً - والإيلاف : أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف انما هو أمان الطريق - وعلى ان قريشاً تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملاتها ويؤدون اليهم رؤوس أموالهم وربحهم: فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم معهم يُجوزهم يوفيههم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب حتى أوردتهم الشام وأحلهم قراها ، ومات في ذلك السفر بغزة . وخرج المطلب ابن عبد مناف الى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن تجر اليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى (الفيض) وهلك بردمان من اليمن . وخرج عبد شمس بن عبد مناف الى الحبشة ، فأخذ إيلافاً كفعل هاشم والمطلب ، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون. وخرج نوفل ابن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ عهداً من كسرى لتجار قريش وإيلافاً ممن مر به من العرب ، ثم قدم مكة ورجع الى العراق فمات بسلام . واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والاسلام «^١ . وهذا القصص . أوجد أهل الأخبار مبدأ الإيلاف ، ومبدأ خروج قريش بالتجارة الى الأقطار المذكورة . ويكون عمل (آل عبد مناف) وفق هذه القصة ، عملين : أخذهم أماناً من الملوك المذكورين بمعاملة قريش معاملة حسنة وحمايتهم لهم في أرضهم من كل تعدّ قد يقع عليهم ، ومراعاتهم مراعاة خاصة حين مجيئهم اليهم للتجارة ، معاملة الأحسن حظوة بين التجار الذين يتاجرون في أسواقهم ، والعمل الثاني ، هو عقدهم الإيلاف مع

١ . ذيل الامالي (١٩٩ وما بعدها) .

سادات القبائل الذين يمرون بهم في ذهابهم وإيابهم الى الشام والعراق واليمن والحبشة ، بأن يأمنوا عندهم في أرضهم ، ولا يعتدى على أحد منهم .

وموضوع ذهاب هاشم واخوته الى الشام أو العراق أو اليمن أو الحبشة ، موضوع طبيعي لا داعي إلى إثارة الشك حوله ، فقد وجدنا أن غيرهم من تجار مكة كانوا يتاجرون مع الأماكن المذكورة ، تاجروا معها قبلهم وتاجروا معها بعدهم ، أما أنهم التقوا بقيصر وبكسرى وبالنجاشي وبتبابعة اليمن ، وتعاقدوا وتعاهدوا معهم ، ففضية أخرى فيها نظر ، وقد عودنا أهل الأخبار على سماع مثل هذا القصص . وكل ما نستطيع أن نتصوره فيما لو صدقنا بالخبر ، هو أن أولئك الأخوة قد قابلوا بعض موظفي الحدود وتصادقوا معهم وقدّموا لهم بعض الهدايا ، فصاروا يتساهلون معهم في جباية الأعشار وفي أخذ حقوق المرور ، فشاع بين قومهم أنهم تعاقدوا مع أولئك الملوك .

والإيلاف ، العهد والدمام وشبه الإجازة بالخفارة ، من ألف بينها تأليفاً ، أوقع الألفة وجمع بينها بعد تفرق ووصلها ، ومن ذلك المؤلفة قلوبهم ، أمر النبي بتألفهم ، أي بمقاربتهم وإعطائهم من الصدقات ليرغبوا من وراءهم في الإسلام ، ولئلا تحملهم الحمية مع ضعف نيّتهم على أن يكونوا مع الكفار على المسلمين^١ . وصار أهل مكة ، بفضل الإيلاف ، آمنين امتيارهم وتنقلاتهم شتاءً وصيفاً والناس يتخطفون من حولهم ، فإذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد . فالإيلاف العهد التي أخذتها قريش من سادات القبائل إذا خرجت في التجارات فتأمن بها^٢ .

وقد عرف أصحاب الإيلاف ، وهم الأخوة الأربعة أبناء عبد مناف بـ (المجبرين) ، إذ كانوا يؤلفون الجوار يتبعون بعضه بعضاً ، يجيرون قريشاً بميرهم ويجبرون فقيرهم ، ولذلك قيل لهم (المجبرين) .

وذكر أن كل واحد من الأخوة المذكورين أخذ حبلًا من ملك . فأما هاشم فإنه أخذ حبلًا من ملك الروم ، وأما عبد شمس ، فإنه أخذ حبلًا من النجاشي . وأما المطلب ، فإنه أخذ حبلًا من أقيال حمير . وأما نوفل ، فإنه أخذ حبلًا من

١ تاج العروس (٤٤/٦) ، (ألف) .
٢ تاج العروس (٤٤/٦) ، (ألف) .

كسرى ، فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الأمصار بحبال هؤلاء^١ .
 و (الحبل) العهد والذمة والايامن ، يقال كانت بينهم حبال فقطعوها ، أي
 عهود وذمم . وذلك أن العرب كانت تخيف بعضها بعضاً فكان الرجل إذا أراد
 سفراً أخذ عهداً من سيد قبيلة فيأمن بذلك ما دام في حدودها حتى ينتهي الى
 أخرى فيأمن بذلك^٢ . والحبل الحلف أيضاً والعصم^٣ . فالحلف بمعنى العهد بين
 القوم والمعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق . وقد كانت الأحلاف كما
 سبق أن تحدثت عنها من أهم سمات الجاهلية ، وقد نهى عنها في الاسلام ، لما
 كانت توقعه من أضرار في المجتمع بسبب التكتلات والتحزبات والعصبية التي تؤدي
 الى القتال . فورد : لا حلف في الاسلام وما كان منه في الجاهلية على نصر
 المظلوم وصلة الأرحام كحلف المطيبين وما جرى مجراه ، فذلك الذي قال فيه
 الرسول: وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزد الاسلام إلا شدة . يريد من المعاقدة
 على الخير ونصرة الحق . وهذا هو الحلف الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما
 يخالف حكم الإسلام^٤ .

وكانت للعرب تعابير ومصطلحات في اعطاء العهد والأمان ، ومنها مصطلح :
 (لا بأس) . والبأس العذاب والشدة والخوف ، وإن قال الرجل لعدوه لا بأس
 عليك ، فقد أمنه ، لأنه نفى البأس عنه . وهو في لغة (حمير) (لبات)^٥ .
 وبفضل اتباع سياسة تأليف قلوب القبائل ، باشر اك ساداتها في تجارة قريش ،
 أو اعطاء ساداتها جمالة مرور ، أو هدايا ، أو بالتصاهر معها ، أو باكرام إيلها
 لنقل تجارة قريش ، تمكنت قريش من تأليف قلوب سادات القبائل ، فأمنت على
 نفسها ، وصارت قوافلها تخرج في أي وقت شاءت من أوقات السنة في الشهور

- ١ تاج العروس (٤٤/٦) ، (الف) .
- ٢ تاج العروس (٢٦٩/١ وما بعدها) ، (حبل) .
- ٣ ابن سعد ، الطبقات (٧٥/١ وما بعدها) ، المحبر (١٦٢) ، الطبري (١٢/٢) ،
 Kister, p. 126.
- ٤ تاج العروس (٧٥/٦) ، (حلف) .
- ٥ قال شاعرهم :
 تنادوا عند غدرهم لبات وقد بردت معاذر ذي رعنين
 تاج العروس (١٠٤/٤) ، (بؤس) ، (٥٨٠/١) ، (لبت) ، اللسان (٢٠/٦) وما
 بعدها) ، (بؤس) .

الحل أو في الشهور الحرم . لا تخشى بأساً ، حتى أنها صارت تعطي أمانها لغيرها ، وبذلك ألقت القبائل الأخرى التي لم تكن لها عقود وإيلاف وحبال مع القبائل المحالفة لقريش ، فصارت تحمل كتاب أمان قريش وشعارها ، وهو ما عضد من شجر الحرم ، يوضع حول العنق ، على ما يزعمه أهل الأخبار ، فيكون جواز سفر وكتاب مرور .

والإيلاف ، أي عقد (الحبال) مع سادات القبائل ، عمل مهم جداً بالنسبة لكل صاحب عمل وتاجر . إذ يتمكن التاجر به من حماية نفسه وماله ومن المرور بأمن وسلام ، دون أن يتعرض لخطر النهب والسلب . وهو حتى إذا تعرض للخطر ، فإن سيد القبيلة بنفوذه وبسيادته على قبيلته كفيل بأن يعيد إليه ما انتهب منه . ولهذا الأهمية ، عقدت قريش الحبال مع سادات القبائل الذين تمر تجارة تجارها بأرضهم . عقدتها قريش ، أو أمضاها تجار من تجارها ، بما لهم من صداقة وصلات زواج وروابط بسادات القبائل ، ولا سيما بسادات قبائل المناطق التي تمر الطرق التجارية بأرضها ، فلهذه القبائل بالذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى كل تاجر ، وللحكومات بصورة خاصة بالطبع ، ولهذا تنافست على الاستحواذ عليها حكومات اليمن وحكومة الحيرة ، والساسانيون . وقد رأينا (امرأ القيس) المتوفى سنة (٣٢٨) للميلاد يصل بجيشه إلى (نجران) مدينة (شمر) ، ورأينا في خبر سجل بالمسند وصول جيوش اليمن إلى أرض الخليج . فلهذه الأرضين ، كاليامة ونجد والبحرين أهمية كبيرة بالنسبة للتجارة في جزيرة العرب لمرور الطرق البرية التي تربط العربية الجنوبية بالعربية الشمالية وبالعراق وسواحل الخليج بها ، ولمرور الطرق التي تربط العربية الغربية بالعربية الشرقية وبالعراق بأرضها . وقد رأينا كيف تعرضت قافلة (كسرى) التي قدمت من اليمن ، قاصدة المدائن إلى السلب والنهب ، وكيف تعرضت (لطيمة) النعمان إلى النهب في هذه الطرق .

ويذكر أهل الأخبار ، أن تجار اليمن والحجاز ، كانوا يتحفزون بقريش ، إذا كانوا بأرض مضر . وأن قريشاً استفادوا من عقدهم الإيلاف مع تميم وأسد ، و (بني عمرو بن مرثد) من (بني قيس بن ثعلبة) ، ومع قبائل (ربيعة) عامة . و (مضر) و (ربيعة) ، هي من قبائل نزار ، و (قريش) نفسها من ولد (مضر بن نزار) في عرف النسابين ، فإذا أخذنا بذلك علماء ، استطعنا القول إن هذا النسب ، إنما هو مصالح تجارية وروابط سياسية مصلحية ، جمعت

هذه القبائل في (بوتقة) مصالح مشتركة ، فأوجدت منها هذا النسب الذي أفاد أهل مكة كما أفاد القبائل الأخرى المشتركة فيه ، والتي كانت تتاجر في أسواق مشتركة فتبيع وتشتري وتنتفع بفضل هذا النسب السياسي .

وللنسب أهمية كبيرة في تأليف القبائل وفي المحافظة على الأمن في البوادي . والتصاهر هو من أهم الروابط التي كانت تربط بين القبائل وبين الأفراد . ومن هذه الأهمية ظهر التصاهر السياسي والتصاهر الاقتصادي ، عند الملوك وعند سادات القبائل والأشراف ، فصاهر رجال من قريش قوماً من (تميم) ومن (بني عامر ابن صعصعة) ومن يثرب واليمن ، وصاهر ملوك الحيرة سادات القبائل المعروفة ، للاستفادة من المصاهرة لمآرب سياسية واقتصادية ، بالحصول على تأييد قبائل أولئك السادة : ولمرور تجارتهم من أرضهم بأمن وسلام . وقد كانوا يعرفون كيف يختارون من يصاهرونه بالطبع ، يختارونه لكثرة عدد أبناء قبيلته ولنزلتها ولملكاتها بين القبائل ، ليتخذوا منه قوة في تأديب القبائل الأخرى . وهو عمل لم يكن سادات القبائل في جهل من أسبابه ، وفي غفلة عن ادراك كنهه ، لذا كانوا يتاجرون به ، كما تاجر به الملوك ، أو سادات القبائل ، فيشترطون فيه شروطاً فيها مكاسب ومنافع لهم . كأن يطعمهم الملوك (الطعام) ويعطونهم الآكال ، ويجعلون لهم جباية الطرق ، وبعض الامتيازات على القبائل الأخرى ، ويجعلونهم على مقربة منهم في مجالسهم ، ويقرّبونهم بذلك على غيرهم من السادات .

وقد كان لهذا التقديم الحضري أهمية كبيرة في نفوس القبائل ، فهو عندهم أمانة من أمارات التشريف والتقدير . والأعرابي وإن ازدري الحضرة والحضارة ، يقر مع ذلك في نفسه بتفوق الحضري عليه : ان لم يكن بالسلاح وبالقتال ، فبالحيل والغش والخداع كما يرى الأعرابي ذلك ، أي باستعمال الحضري ذكائه الميبي على التجارب والتقدم في مستوى الحياة في التغلب على الأعراب البسطاء الذين وإن كانوا أذكاء بالبديهة ، لكن ذكاءهم لا يكافئ ذكاء الحضرة في التخلص من المتاعب والورط المعقدة التي تحتاج الى خداع .

وقد افتخر سادات القبائل الذين كان مستواهم العقلي فوق مستوى قبائلهم بكثير - بفضل اتصالحهم بالحضر ، وزياراتهم (الأرياف) وبيوت الملوك ، بسبل البلاد الأعجمية المتقدمة أيضاً - بهذا التقديم ، واعتبروه شرفاً وتعظيماً ، فأكثروا من زيارة الملوك ، وانتهزوا المناسبات للاتصال بهم ، وافتخروا بما كانوا ينالونه منهم

من عطايا وصلات وخلع ، وهو تكريم كان يؤدي أحياناً الى نتائج محزنة ، بسبب مبالغة بعض الملوك في تكريم سيد قبيلة ، وتقديمه على غيره من السادات ، مما كان يثير حقد بقية السادات ، الذين قد تهيج عواطفهم عندئذ لهذا التقديم ، وقد يعتبرونه إهانة خاصة قصد توجيهها اليهم ، فينتقمون ممن قدم عليهم ، أو ينتقمون من الملك ، بالإغارة على أرضه وأمواله . ونجد تأريخ الحيرة مليئاً بحوادث سببها إسراف بعض الملوك في الانصياع لعاطفتهم بتقديم سيد قبيلة ، وتأخير آخر بإجلاله في مكان هو دون المكان الذي كان من اللازم اجلاسه فيه من مجلس الملك. ولقرب المكان وبعده من الملك ومن صدر المجلس أهمية كبيرة عند سادات القبائل وفي عرف المجتمع آنذاك ، حتى صار ذلك سنة لهم ، اتبعوها في مجالسهم أيضاً ، فإذا دخل الناس مجلس سيد القبيلة جلسوا حسب منازلهم وأقدارهم في مجتمعهم ، على الرغم من مظاهر (الديمقراطية) والمساواة التي تظهر عليهم ، والتي تبدو عندهم في مخاطبة بعضهم بعضاً .

السلع :

والأدم والزبيب والصمغ والطيب والتبر والبرد اليانية والثياب العدنية والأسلحة ومصنوعات الحديد والمعادن الأخرى ، هي من أهم السلع الرئيسية التي تتكون منها تجارة قريش . وبعض هذه السلع مهم وغال ومطلوب . فكان تجار مكة يشترونه من معادنه ومواضعه ، ويبيعونه في الأماكن التي تبحث عنها ، وتربح من ذلك ربحاً كبيراً . وقد كانت (الأدم) على رأس الأموال التي تاجرت بها ، حتى ان قريشاً كانت قد جعلتها على رأس الهدايا والألطف التي كانت تهديها الى الملوك والرؤساء وأكابر الناس. فلما ذهب (أبو سفيان) الى العراق ، ووصل الى (كسرى) كما يزعم أهل الأخبار ، أهدى اليه أدماً وخيلاً ، فقبل (كسرى بن هرمز) الخيل وردّ الأدم . ولما أرسلت (قريش) (عبدالله بن أبي ربيعة) و (عمرو ابن العاص بن وائل) الى النجاشي ومعها هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم ، جمعت له أدمساً كثيراً ، ولم تترك من

١ الاغاني (٤٦/١٢) ، العقد الفريد (٢١/٢) ، (لجنة) .

بطارقه بطريقاً إلا وله هدية ، فكانت الأدم على رأس أطفاف مكة
وهداياها^١ .

ومن العطور التي كانت معروفة بمكة : (الدرور) ، عطر يجاء به من الهند
كالذريرة ، وهو ما انتحت من قصب الطيب ، وقيل هو نوع من الطيب مجموع
من أخلاط ، وبه فسر حديث عائشة : طيب رسول الله لإحرامه بذريرة^٢ .

وأغلى سلع قريش التي كانت تحملها لبيعها في أسواق بلاد الشام ، هي (الفضة) .
ولما أرسل الرسول (زيد بن حارثة) على غير لقريش كان فيها (أبو سفيان) ،
وكانت قد غيرت طريقها الذي يسلك الى الشام ، وسلكت طريق العراق ، كانت
مع (أبي سفيان) فضة كثيرة ، وهي أعظم تجارتهم ، فالتقى بها (زيد بن
حارثة) فأصاب العير ، وبلغ خمس الرسول من الغنمة عشرون ألفاً ، ومعنى
هذا ان قيمة الغنائم ، كانت مائة ألف^٣ . وقد ذكر في خبر هذه السرية ان الفضة
كانت آتية كثيرة ، وسكت خبر آخر عن نوع الفضة ، وأما ذكر ان (أباسفيان)
كان يحمل معه فضة كثيرة^٤ .

والأسلحة من أهم مواد التجارة التي كان يتاجر بها التجار . فالسلاح أداة
ضرورية جداً بالنسبة الى الأعرابي ، فبه يدافع عن نفسه ، وهو لا ينام إلا
وسلحه الى جانبه ، حتى إذا ما شعر بأقل حركة ، نهض وهو بيده ليدافع به
عن نفسه . والتاجر نفسه مع انه انسان مسالم لا يميل بطبيعة عمله الى حمل السلاح
والتقاتل كان مضطراً مع ذلك الى حمله معه والى استخدام العبيد والأعوان للدفاع
عن نفسه وعن أمواله . ولهذا كان يحرص على شرائه من أي مكان يجده فيه
ليدافع به عن نفسه ، كما كان يتاجر به لأن الاتجار به من أرباح الأعمال في
السوق ، لإقبال الناس عليه ، فكان يشتريه من صناعه ومن أسواقه ، لبيعه لمن
يطلبه بسعر أعلى ، فيربح بذلك كثيراً من الفرق بين السعرين .

وكان لأهل مكة خاصة حس مرهف نحو التجارة . كانوا إذا سمعوا أجراس

- ١ الترويض الانف (٢١١/١) وما بعدها .
- ٢ تاج العروس (٢٢٣/٣) ، (ذر) .
- ٣ الطبري (٤٩٢/٢) وما بعدها .
- ٤ الطبري (٤٩٢/٢) وما بعدها .

عير ، هرعوا نحوها يلتمسون خبرها . فلما أقبلت من الشام عير لدحية بن خليفة الكلابي ، أو لعبد الرحمن بن عوف ، تحمل زيتاً أو طعاماً ، وكان رسول الله يخطب يوم الجمعة ، والناس خلفه صفوفاً ، فلما سمعوا بها ، جعلوا يتسللون ويقومون إليها ، خشية أن يسبقوا إليها ، فتباع ، حتى بقيت منهم عصابة اثني عشر رجلاً وامرأة . وكانوا إذا أقبلت العير ، استقبلوها بالطبل والمزامير والكبر والتصفيق . فلما نظر رسول الله الى المصلين وقد انفضوا من حوله ، عنفهم ووبخهم ، ونزل في حقهم ما نزل في الآية من ترك البيع حالة صلاة الجمعة^١ .

ويتبين من كتب الحديث ان الصحابة كانوا يتعاطون التجارة ، ويتكسبون في الأسواق ، وقد كانوا نشطين جداً في ذلك ، وكان أهل مكة أكثر نشاطاً من أهل المدينة في هذا الباب ، فلا يكاد بعضهم يصل المدينة مهاجراً من مكة حتى يسأل عن السوق ، ويبحث عن رزق ، فذهب بعضهم الى سوق بني قينقاع ، وهي من أسواق يهود ، فنجحوا فيها وحصلوا على ربح ومال أعالوا به أنفسهم . وقد كان في جملة ما أجاب به أبو هريرة ، وقد قيل فيه : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، وان المهاجرين والأنصار لا يحدثون عنه بمثل حديث أبي هريرة : « إن اخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق الأسواق ، وكنت ألزم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على ملء بطني ، فأشهد اذا غابوا ، واحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخوتي من الأنصار عمل أموالهم ، وكنت امرءاً مسكيناً من مساكين الصفة أعني حين ينسون^٢ » . فالأنصار كانوا أصحاب زرع وأموال ، والمهاجرون كانوا أصحاب تجارات .

وكانوا اذا التهوا في السوق وانصرفوا في التجارة ونسوا أمورهم الأخرى ، قالوا ألهانا الصفق بالأسواق ، يعني الخروج الى تجارة وبيع وشراء . وقد أدى

١ سورة الجمعة ، الآية ٩ وما بعدها ، تفسير الطبري (٦٦/٢٨ وما بعدها) . تفسير النيسابوري (٦٨/٢٨ وما بعدها) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، تفسير ابن كثير (٣٦٦/٤ وما بعدها) ، الواحدي ، أسباب النزول (٣٢٠) ، مسند الامام أبي حنيفة (٧٣ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٢/٤ وما بعدها) ، اثار السنن (٨٨/٢) ، تيسير الوصول (١٨٢/١) .

٢ صحيح البخاري (٥٢/٣ وما بعدها) ، (كتاب البيوع) ، عمدة القاري (١٦١/١١ وما بعدها) ، ارشاد الساري (١٥/٤ وما بعدها) .

انصراف بعض الصحابة الى السوق وتعلقهم بالتجارة الى انفضاضهم أحياناً عن الرسول وهم حوله ، فورد في الحديث : « بينا نحن نصلي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إذ أقبلت من الشام عير تحمل طعاماً فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلا اثنا عشر رجلاً ، فنزلت : وإذا رأوا تجارة أو هواً انفضوا إليها وتركوك قائماً »^١ .

وكان (العباس بن عبد المطلب) من أغنياء قريش ، ومن المقرضين للبال بفضل يأخذه من المدين يضعه على رأس ماله . وقد بقي على ماله وراثته في الاسلام كذلك . وكان الرسول قد أبطل ربا العباس في أول ما أبطل من ربا في الاسلام . وكان العباس يتاجر كذلك ، له محل يتاجر فيه ، ويستقبل التجار الغرباء . وقد ذكر أن (عفيف الكندي) كان في جملة من تاجر معه في الجاهلية ، وقد جاء اليه ليبتاع منه بعض التجارة^٢ .

ولما آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين ، آخى بين (عبد الرحمن بن عوف) ، وهو من المهاجرين ، وبين (سعد بن الربيع) ، وهو من أكثر الأنصار مالاً ، فقال (سعد بن الربيع) : « أقاسمك مالي نصفين وأزوجك » . قال (عبد الرحمن) : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلّوني على السوق . فدلوه على سوق قينقاع ، فغدا اليه ، ثم تابع الغدو ، فما لبث أن جمع مالاً من تعامله بالسوق وصار من المثرين^٣ .

وقد كان (عبد الرحمن) تاجراً بمكة قبل هجرته الى يثرب ، وصاحب مال . فلعل الرسول أراد من مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، أن يساعد المهاجرون الأنصار وأن يتعاونوا معاً ، كما كان شأن عبد الرحمن وسعد بن الربيع ، وهما من أصحاب الخبرة والتجربة في العمل ، فيفيدوا بذلك الإسلام بما يحصلون عليه من مال .

وقد ذكر أهل الأخبار ، أن عبد الرحمن ، تصدق على عهد رسول الله ، بشطر ماله ، ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار ، ثم حمل خمسمائة فرس في سبيل

١ البخاري (٣/٥٥) ، ارشاد الساري (٤/١٤ وما بعدها ، ٥٥) .
٢ الاصابة (٢/٤٨٠) ، (رقم ٥٥٨٨) .
٣ ارشاد الساري (٤/٤ وما بعدها) .

الله وخسمائة راحلة ، وكان أكثر ماله من التجارة . وذكروا أنه أعتق ثلاثين ألف نسمة وأنه أوصى لكل من شهد بديراً بأربعمائة دينار ، فكانوا مائة رجل . وذكروا أنه كان تاجراً مجدوداً في التجارة ، وكسب مالاً كثيراً ، وخلف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ، ومائة فرس ترعى بالبقيع ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً فكان يدخل منه قوت أهله سنة . وذكروا أنه صالح امرأته التي طلقها في مرضه من ثلث الثمن بثلاثة وثمانين ألفاً ، وقيل عن ربع الثمن من ميراثه . ورووا أنه أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً . وأنه كان يقول : « قد خشيت أن يهلكني كثرة مالي . أنا أكثر قريش كلهم مالاً »^٢ .

وكان (أبو بكر) تاجراً معروفاً بالتجارة بمكة قبل الاسلام. ولقد بعث النبي وعنده أربعون ألف درهم ، ولما أسلم كان يعتق منها ويعول المسلمين ، حتى قدم المدينة بخمسة آلاف^٣ .

وكان (طلحة بن عبيد الله بن عثمان) القرشي التيمي ، من تجار مكة ، ولما قدم المدينة مهاجراً ، أخذ يتاجر مع (الشأم) ، وذكر انه اشترى مالاً ب (بيسان) ، وان غلته تبلغ ألفاً وافيأ كل يوم . والوافي في وزنه وزن الدينار ، وعلى ذلك وزن دراهم الفرس التي تعرف بالبغلية . وقد ساهم في حرب الجمل ، التي وقعت سنة ست وثلاثين^٤ .

والزبير من رعييل التجار كذلك ، وكان تاجراً مجدوداً في التجارة ، كان له ألف مملوك يؤدون اليه الخراج^٥ ، وله أرضون واسعة وأموال طائلة .

تجار يثرب :

ولم يشتهر أهل (يثرب) في كتب أهل الأخبار بالتجارة ، وانما اشتهروا فيها بالزراعة ، ولا سيما بزراعة النخيل . ولكننا نجد ان من بينهم من كان يتاجر مع

- ١ الاصابة (٤٠٨/٢) ، (رقم ٥١٨١) .
- ٢ الاستيعاب (٣٨٥/٢) وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
- ٣ الاصابة (٣٣٣/٢) ، (رقم ٤٨١٧) .
- ٤ الاستيعاب (٢١٠/٢) وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
- ٥ الاستيعاب (٥٦٣/١) ، (حاشية على الاصابة) .

بلاد الشام واليمن ، وله أموال شغلها في التجارة ، كما ان من بينهم من كان يعطي فضل ماله بالربا للمحتاج الى المال ، وكان منهم من حصل على مال كثير فابتنى له (الأطم) و (الحصون) ليحصن نفسه وماله بها . ولما هاجر المهاجرون اليها ، تعاطم شأن التجارة بها ، إذ أخذ المهاجرون والأنصار يتاجرون مع الشام ، فيبيعون ويشتررون ويستوردون التجارة الى المدينة ، بقوافل تأتي محملة بالزيوت وبتجارة الشام اليها . حتى أمر الرسول باتخاذ سوق بها ، يتاجر فيه التاجر دون ان يدفع خراجاً ، بقوله : هذا سوقكم لا خراج عليكم فيه . فرفع عن تجار يثرب ما كان يدفعه تجار الأسواق الأخرى من خراج الأعشار .

ويظهر من دراسة وتشریح كتب التفسير والحديث والسير والأخبار : أنه قد كان بين أهل (يثرب) وأهل مكة فروق في أصول التعامل التجاري ، فوزن أهل يثرب يختلف عن وزن أهل مكة ، وكيلهم يختلف عن كيلهم أيضاً ، وتعاملهم في السوق يختلف بعض الاختلاف عن تعامل أهل مكة . ثم هم فوق ذلك يختلفون عن أهل مكة في أنهم أصحاب زرع ، وأهل مكة أصحاب تجارة ، ولما جاء الرسول الى المدينة ، وجد لهم معاملات تخص أكثرها الزراعة لم تكن معروفة بمكة ، فسألهم عنها ، وحدد لهم موقف الإسلام منها .

وسبب هذا الاختلاف ، هو اختلاف طبيعة المكانين . فمكة بلد غير ذي زرع فقلَّ عندهم التعامل الزراعي ، لعدم احتياجهم اليه . أما (يثرب) ، فبلد زراعة عيشة أهله على الزراعة واستغلال الأرض ، وبالإشتراك والتعاون في استغلال الملك الفاضل على الزراعة وبإستغلال الأرض ، وبالاشتراك والتعاون في استغلال الملك الفاضل على حاجات صاحبه ، فظهرت عندهم أعراف زراعية ، لم تعرف بمكة . وكانت عندهم بعض حرف ، لم تشتهر بمكة . ومن هنا راعى التشريع الإسلامي في التجارة أعراف أهل مكة فيها ، وراعى في التشريع الزراعي وفي الحرف . أعراف أهل يثرب في الاثنين .

واقتصاد يثرب اقتصاد زراعي ، الانتاج فيه انتاج زراعي ، ثم حيواني ، عماد الانتاج فيه التمور والحضر ، أما اقتصاد مكة ، فهو اقتصاد تجاري عماده التجارة القائمة على أساس شراء السلع من الأسواق ونقلها الى مكة ، وتصريفها من هناك

على أهل مكة ومن حولهم ، ونقل الفائض الى الأسواق الموسمية وأسواق العراق وبلاد الشام والعربية الجنوبية . فهو اقتصاد لا يعتمد على الانتاج المحلي ولا على حرف محلية ، إنما يقوم على أساس شراء المنتجات الأجنبية من مصادرها بأسعار أعلى ، للحصول على الأرباح عن طريق الفرق بين السعيرين : سعر الشراء وسعر البيع ، أو عن ثمن التوسط في معاملات البيع والشراء .

ويظهر ان أهل يثرب لم يكونوا قد أقبلوا على الزراعة اقبالاً كافياً ، وان الأرض لم تكن قد استغلت استغلالاً جيداً، لهذا نجد الرسول بعد هجرته الى هذه المدينة يحث المسلمين على الاقبال على الزراعة وعلى العمل بها ، وعلى استغلال الأرض ، لأن فيها قوت المسلمين ، فأراد بذلك سد النقص الذي كان يجابه أهل المدينة وغيرها في الحبوب وفي أقواتهم الأخرى ، وهذا مما أدى الى احياء بعض أرضها في أيامه ، أحيائها أهل يثرب وأحيائها بعض المهاجرين .

وكان بعض تجار مكة يمرون بيثرب في طريقهم من مكة الى بلاد الشام ، وفي عودتهم منها الى مكة . ولما خرج (هاشم) في عبر لقريش فيها تجارات ، كان طريقه على المدينة ، ثم نزل بسوق النبط ، وهي سوق تقوم بها في السنة يمشدون لها ، يبيعون ويشترون^١ . وهي سوق يظهر أنها كانت تقام في موسم معين من السنة ، فيتجمع فيها التجار للبيع والشراء . ولما خرج (عبدالله) والد الرسول الى الشام الى غزة في عبر من عبرات قریش يحملون تجارات ، ففرغوا من تجارتهم ثم انصرفوا ، مروا بالمدينة ، وبها توفي فدفن هناك ، في دار النابغة ، وهو رجل من بني عدي بن النجار^٢ .

وقد كان الأنباط يتاجرون مع المدينة ، يأتون اليها ب (الدرملك) ، وهو الدقيق الحواري ، وهو دقيق أبيض، وبالزيت . وكانوا يأتون اليهم بأخبار الروم^٣ . ولعلهم كانوا يتاجرون في موضع معين من أسواق يثرب، فعرف لذلك بسوق النبط. وقد نافست (يثرب) مكة في التجارة بعد هجرة الرسول اليها ، إذ أخذ المهاجرون يتاجرون منها مع بلاد الشام والعراق ، وصارت القوافل ترد اليها محملة

١ ابن سعد ، طبقات (٧٨/١) .

٢ ابن سعد ، طبقات (٩٩/١) .

٣ امتاع الاسماع (٤٤٥/١) وما بعدها .

بيضايع بلاد الشام ، وأخذ الأنصار والمهاجرون يتاجرون معاً في الأسواق ، وقد تضخمت هذه التجارة بعد فتح مكة، ودخول القبائل في الإسلام ووصول الصدقات الى بيت المال في المدينة ، فتحسن حال أهل المدينة وصار لهم رأس مال مكنهم من تشغيله في التجارة وفي الزراعة ، فاستغلوا أرض يثرب بزروعها زروعاً مختلفة ، ثم استغلوا أموالهم هذه في الخارج بعد الفتوح .

وقد نشأت يثرب وتوسعت لوجود المساء بها ، وهذا المساء هو الذي صيرها مستوطنة زراعية ، كما صير غيرها من المستوطنات العديدة التي تقع في شمالها وتمتد حتى تتصل في فلسطين مستوطنات زراعية منتجة ذات بساين ومزارع يعتمد في زرعها على العيون والآبار . وكان عماد حاصلها التمر . وقد أحاطت بيثرب هالة من (الحوائط) المغروسة بالنخيل ، غرسها سادات يثرب ، فصارت من أهم موارد رزقهم ، وقد زرعوا بعض الخضر والبقول تحت النخيل ، لسد حاجتهم وبيع الفائض منه في الأسواق . ولكبار الملاكين فيها (أطم) يعيشون فيها ويخزنون بها ميراثهم وحاصلهم ، ويحتمون بها عند الخطر . وأما سواد الناس ، فلهم بيوتهم ، وبعضها بيوت ذات طابقين . ولم تكن المدينة مسورة ولا محاطة بخندق على ما يظهر من روايات أهل الأخبار ، بل كانت مدينة مكشوفة ، إذا دامها خطر ، قام أهلها بسد منافذ طرقها ، وبالدفاع عنها من السطوح ، وبمقاومته في الأزقة .

وأرض يثرب أرض خصبة كان من الممكن زرعها لو أقبل أهلها على الزراعة ، ولكنهم لم يقبلوا عليها اقبالاً تاماً ، بل قام المتمكنون منهم بغرس الأرضين الغنية بالماء ، والأرضين التي كان الماء فيها قريباً من سطح الأرض بحفر الآبار بها ، وتركوا الأرضين الأخرى مواتاً لم تزرع . وشغلوا الموالي والرقيق في الزراعة ، ولو أجهدوا أنفسهم في استصلاح التربة وفي استنباط الماء ، وحبس مياه السيول ، لأحيوا بذلك أرضين واسعة . بدليل ان بعض المهاجرين ممن كانت عندهم رغبة في الزراعة وأموالاً ، عملوا في استصلاح أرضين مواتاً حتى أحيوها ، وصارت تأتي اليهم بغلات وافرة .

ومن أثرياء يثرب (أحيحة بن الجلاح) ، وهو من سادة الأوس^١ . وهو

١ تاج العروس (٢/١١٩) ، (أح) .

من أصحاب الأرض ، وكان شريفاً في قومه ، مات قبل الاسلام . وكانت تحته (سلمى بنت عمرو الخزرجية) ، وتزوج (سلمى) بعده (هاشم بن عبد مناف) فولدت له (عبد المطلب) جد النبي^١ .

وسعد بن عبادة بن دليم ، سيد الخزرج ، هو من أغنياء يثرب ومن أصحاب الأطم فيها . وكان سيداً كريماً مضيافاً ، جفنته تدور مع النبي في بيوت أزواجه وكان يأخذ كل ليلة جماعة من أهل الصفة يعيشهم ، وكان أهل الحاجة يذهبون الى أطمه ينالون الشحم واللحم^٢ .

والطائف مصيف أهل مكة ومتمونها من الفواكه والزبيب والعسل والخضر . وقد اشترى أغنياء قريش بها الأملاك والبساتين وشاركوا أهل الطائف في التجارة . وهي بلاد (ثقيف) . وثقيف من المتحضرين للشطين الأذكباء . وللطائف قرى ، أولها (لقيم) ، وآخرها (الوهط) . وكان اسمها القديم (وج) . ويذكر أهل الأخبار ، أن (الطائف) ، كانت في الأصل قرية بالشأم ، أو قطعة من الجنة التي كانت لأصحاب الصريم ، أو باليمن بنواحي صنعاء ، فنقلت بدعوة (ابراهيم) الى الحجاز ، لتكون مصيفاً وجنة لأهل مكة . وكانت بغير سور ، فلما جاء (الصدف بن الدمون) من حضرموت الى (وج) ، وكان قد أصاب دماً في قومه ، لحق بثقيف وأقام بها ، وأقام لهم طوقاً أطاف بوج ، فسميت بالطائف منذ ذلك الوقت . ومنهم من يزعم ، أنها إنما سميت بذلك لأن (جبريل) لما نقلها من موضعها ، طاف بها بالبيت سبعاً ، ثم وضعها بموضعها ، فعرفت بالطائف^٣ .

وكان أهل الطائف مزارعين ، عاشوا على الزراعة ، واتخذوها تجارة لهم . زراعة الكروم والفواكه والخجوب . وكسبوا من ذلك مالاً ، وكان منهم من اشتغل بدبغ الجلود ، وبيع (الأدم) أي الجلود المدبوغة أو تصديرها الى الخارج ، ومنهم من تاجر ، وساهم مع تجار مكة في تجارتهم . فتجمع من كل ذلك رأس مال شغله أصحابه في الربا ، فكانوا يقرضون المال لمن يحتاج اليه من أهل الطائف ومن غيرهم ، لوجود ما فائض عندهم .

- ١ الاصابة (٣٧/١ وما بعدها) ، (رقم ٥٥) ، المحبر (٤٥٦) .
- ٢ الاصابة (٢٧/٢ وما بعدها) ، (رقم ٣١٧٣) .
- ٣ تاج العروس (١٨٤/٦) ، (طوف) .

ووجد التجار في كل مكان وجدت فيه أسواق و سلع و تجارة من بلاد العرب في الجاهلية وفي الاسلام ، لم تكن تخلو منهم مدينة من المدن أو قرية كبيرة . فسوق الفلج كان سوقاً لبني نزار واليمن^١ . وب (العوسجة) وهي معدن ، تجار^٢ ، من الجائر ان يكونوا قد تجمعوا في هذا المكان للتجار بالمعدن الذي يستخرج منه ، فكانوا يتعاطون الاتجار بالمعادن .

١ الصفة (١٦٠) .

٢ بلاد العرب (٣٦٨) .